الفراعنة الأمازيغ

سعيد بودبوز

دراسة تاريخية

الفراعنة الأمازيغ

دراسات تاريخية

تأليف: سعيد بودبوز

مقدمة

بحثت كثيرا عن الكتب التي تتحدث، بشكل مركز، عن الحضارة الأمازيغية، وخاصة ما يتعلق بمساهة الأمازيغ القدامى في تأسيس وتطوير الحضارة المصرية (الفرعونية)، ولكني لم أجد إلا بعض الشذرات هنا وهناك، في حين وجدت كتبا عديدة حول تاريخ الفراعنة، سواء من خلال القرائن التاريخية، أو الآثار التي تم اكتشافها على ضفاف وادي النيل، تشير بقوة إلى المساهمة الأمازيغية في بناء هذه الحضارة (المصرية). ومن هنا فكرت في كتابة دراسة مطولة ومفصلة حول تاريخ الأمازيغ القدمى، إلا أن الوقت لم يسمح لي، لحد الآن، بإتمام هذا المشروع. وسوف أحاول مستقبلا مواصلة ما بدأته إن شاء الله.

الدراسات التي يضمها هذا الكتاب عبارة عن مقالات تم نشرها في العديد من المنابر الورقية والرقمية. وأول دراسة لي، فيما يتعلق بتاريخ الأمازيغ القدامى، هي الدراسة التي تحمل عنوان "الفراعنة الأمازيغ"، والتي نشرت لأول مرة في جريدة "أكراو أمازيغ Agraw Amazigh"عدد 239/34، 16 ماي 2010. ومن ثم انتشرت عبر الإنترنت بشكل كثيف، سواء من خلال المواقع الرقمية التي نشرتها فيها بنفسي، أو من خلال أشخاص آخرين كما هو معروف في مجال النت. لهذا فإن الكتاب ليس قائما على تسلسل الأفكار حسب الحقب التاريخية التي أتناولها، وإنما ارتأيت أن أجمع فيه ما كتبته عن الأمازيغ حسب الترتيب الذي تمت به الكتابة والنشر. من هنا ارتأيت أن أخصص الفصل الأول لدراستي الأولى "الفراعنة الأمازيغ"، وخصصت الفصل الثاني للدراسة التي تحمل عنوان" الإمبراطورية الأمازيغية والأمازيغوفوبيون"، والتي نشرت في جريدة

"أكراو أمازيغ" المذكورة، **عدد 240/34. 01 يونيو 2010**. وبعد ذلك انتشرت عبر شبكة الإنترنت، ثم نشرت في مجلة "إشراق المصرية" مؤخرا. بعد هاتين الدراستين تأتي سلسلة من المقالات بعنوان"الحضارة المصرية الأمازيغية"، والتي أعود فيها إلى جذور الحضارة الفرعونية، أي أن هذه الدراسة تدور حول حقبة أقدم بكثير من الحقبة (أو الحقب) التي تدور حولها دراستي الأولى (الفراعنة الأمازيغ).

***

الفصل الأول

الفراعنة الأمازيغ

صورة للفرعون الأمازيغي "أوسركون الثاني"

موجودة بمتحف اللوفر Musée du Louvre

في أواخر النصف الأول من القرن العاشر، قبل الميلاد، استولى الأمازيغ على أرض النيل وجلس قائدهم "شيشنق الأول" على عرش مصر، ولقد تمكنوا من

تأسيس أسر فرعونية أمازيغية هناك وهي الأسرتان؛ الثانية والثالثة والعشرين بالتحديد كما يرجح أن تكون الأسرة السادسة والعشرون أيضا أسرة أمازيغية. من خلال هذه الورقة أود أن أتحدث بإيجاز عن بعض الحيثيات والظروف التي اكتنفت سيطرتهم على مصر. وقد أتوسع في الموضوع مستقبلا من خلال تسليط الضوء على الدور الذي لعبه الفراعنة الأمازيغ في مصر واحدا تلو الآخر. من المعلوم، لدى المؤرخين، أن أول فرعون أمازيغي حكم مصر، من هذه الأسر، كان اسمه "شيشنق الأول"، وفي بعض الكتابات "شيشنوق" أو "شاشانق" أو"ششنق"، والذي يطلق عليه الإغريق"سيسونخس". استولى على عرش مصر سنة 950 ق.م، واستمرت فترة حكمه إلى غاية سنة 929 ق.م. بعد شيشنق الأول حكم "أوسركون الأول" أو "أسرثون"، كما يسميه الإغريق، ابتداء من سنة 929 ق.م إلى سنة 893 ق.م حيث تولى العرش المصري، من بعده، " تاكيلوت الأول" أو "تاكلوتس الأول" الذي استمر عهده لمدة 23 سنة، أي ما بين 893 ق.م. و 870 ق.م. ثم حكم "أسركون الثاني" بعده ابتداء من سنة 870 ق.م. إلى سنة 849 ق.م. بعد "أوسركون الثاني" آل العرش المصري إلى "شيشنق الثاني" الذي حكم بين سنة 849 ق.م و سنة 847 ق.م. بعد شيشنق الثاني تولى العرش "تاكيلوت الثاني" والذي حكم في الفترة ما بين 847 ق.م. و832 ق.م. ثم تولى العرش بعده "سيسونخس" أو "شيشنق الثالث" ابتداء من سنة 832 ق.م إلى سنة 772 ق.م. بعد "شيشنق الثالث" آل العرش المصري إلى "بامي" ابتداء من هذه السنة إلى سنة 767 ق.م. بعد بامي تولى العرش "حورسا إيزيس" في سنة 767 ق.م وبهذا انتهت الأسرة الثانية والعشرين. وبدأت الأسرة الثالثة والعشرين على يد "ابتوباس" أو "بادوباست" الذي حكم

في الفترة ما بين سنة767 ق.م وسنة757 ق.م. بعد "بادوباست" حكم "أوسرخو" أو "أوسركون الثالث" ، ابتداء من 757 ق.م إلى سنة 748 ق.م. ثم تولى الحكم بعده "بساموس" أو "تاكيلوت الثالث" لما يناهز 8 سنوات ابتداء من 748 ق.م إلى سنة 740 ق.م. وبعد "تاكيلوت الثالث" تولى الحكم "زت" أو "رود آمون" لمدة 31 سنة.

وتجدر الإشارة إلى أن الأسرة السادسة والعشرين، كما أسلفت، يرجح أن تكون أمازيغية هي الأخرى [1]، وإن صح أن تكون كذلك فإن الفراعنة الذين ينتمون إلى هذه الأسرة هم : "بسماتيك الأول"، "نخاو الأول"، "بسماتيك الثاني"، "نخاتو الثاني"، "واج اب رع"، "احمس الثاني"، و"عنخ كا ان رع". وتمتد فترة حكمهم ما بين سنة 680 ق.م. و سنة 540 ق.م.

بالنسبة إلى تحديد فترة هذه الأسر وتسلسلها الزمني اعتمدت على ما جاء به المؤرخ المصري "مانيتون"[2] وذلك لما لامسته فيه من الدقة والتطابق مع ما توصلت إليه بعض الأبحاث العلمية مؤخرا، فمن المعلوم أن مانيتون هو الذي وضع قوائم الملوك الفراعنة، بطلب من أحد الحكام البطالمة، وهي القوائم التي يقول في شأنها الدكتور سيد كريم : "لقد ثبت أن النتائج التي يقدمها نظير الكربون 14 من الدقة بحيث لا يزيد عن 50 سنة في الخمسة ألاف سنة الأولى ويصل إلى ما لا يزيد على 120 سنة في العشرة ألاف. إن ذلك الخطأ الزمني في تاريخ مصر سيعيد إلى المؤرخ المصري مانيتون اعتباره، فهو الذي كتب التاريخ الزمني لمصر ابتداء مما أطلق عليه بدء الخليقة وحكم الكهنة المبجلين من عام 16500 ق.م إلى نهاية حكم الفراعنة وحدد فيه بداية الأسرات عام 5619 ق.م بدلا من عام 3200 ق.م الذي حدده المؤرخون الأجانب"[3].

اختلف المؤرخون حول الوسيلة التي استخدمها الأمازيغ للسيطرة على مصر، إذ نجد البعض يميل إلى القول بأنهم دخلوها بالقوة، بينما يقول البعض الآخر بأن ذلك قد تم بالسلم، على أن ما يصعب نفيه هو تلك السلسلة من الهجمات الأمازيغية التي كان يتعرض لها العرش المصري منذ بداية الحضارة الفرعونية، والتي استطاع الفرعون المصري رمسيس الثاني أن يتصدى لها بحزم، إذ سجل صرامة حقيقية ضد الأمازيغ، وكان شديد البأس أمام كل من تسول له نفسه أن يقترب من أرض النيل. ومن المعلوم أن تلك الهجمات الأمازيغية، التي كانت قبل وبعد رمسيس الثاني، تشن على مصر نراها قد انتهت بعد أن أصبح الأمازيغ حكاما لأرض النيل قيادة وجيشا. وهذا يجعلنا نفترض علاقة منطقية بين الحكم، حتى وإن تم بالسلم نوعا ما، وتلك الهجمات الشرسة. وهو ما يقودنا إلى الاستنتاج بأن السيطرة الأمازيغية على العرش المصري حدثت نتيجة الغزو العسكري، حتى وإن حدث نوع من التراضي على مستوى التفاصيل كما سنرى لاحقا.

في إطار الأجواء التمهيدية التي انتهت بالسيطرة الأمازيغية على مصر يقول الدكتور أحمد عبد الحليم دراز : "تهورت أحوال مصر الاقتصادية خلال عصر الانتقال الثالث، وسارت من سيء إلى أسوأ، وكان وراء ذلك العديد من العوامل الداخلية والخارجية منها الحروب المتكررة التي خاضتها مصر في الشرق والغرب ضد شعوب البحر من ناحية وضد عناصر الماشواش والليبو في مصر من ناحية أخرى، وما نتج عن ذلك من إنهاك للاقتصاد المصري، واستقرار بعض العناصر الأجنبية في مصر، وأمكن لبعضها أن يرتقي عرش مصر كما حدث للأسرة الثانية والعشرين الليبية الأصل." [4] فإلى جانب الصورة الداخلية المزرية

التي أشار إليها أحمد عبد الحليم دراز هنا نجد أنه يتحدث عن تلك الهجمات التي كان يتعرض لها العرش المصري من الحدود الغربية لمصر، وهذا يعني أن الأمازيغ قد استولوا على مصر بالقوة، إلا أن هذا مجرد تحصيل حاصل أولي، على ما يبدو، لأن هؤلاء وإن كانوا يتحدثون عن حروب شرسة، لم تكد تتوقف منذ فجر الحضارة المصرية، إلا أنهم يفصلون بين ذلك واعتلاء شيشنق الأول للعرش المصري، وفي المقابل نجد أن الأمازيغ مازالوا يحتفلون برأس السنة الأمازيغية الموافق للثاني عشر من السنة الميلادية، وهم يعتقدون بأنه بدأ مع استلائهم على مصر وانتزاعها من الفراعنة بالقوة، وذلك بعد أن هاجمهم الفرعون وهزموه أشر هزيمة، ثم لاحقوه إلى مصر، وبهذا استولوا على أرض النيل. ولكن هذه قد تكون مجرد أسطورة، كما قد تكون حقيقة، وعلى كل حال لابد من استشارة ما أمكن من المراجع لعلنا نصل إلى حقيقة ما حدث في هذا الشأن. إن الدكتور أحمد عبد الحليم دراز، وإن كان يميل إلى الاقتضاب في حديثه عن وصول الأمازيغ إلى عرش مصر، إلا أن ما أكده، من الهجمات التي تعرضت لها مصر على أيدي الأمازيغ، يعني أن القصة قد بدأت بإجبار السلطة المصرية الفرعونية على التنحي عن العرش المصري. وفي الحقيقة هناك مؤرخون آخرون يتحدثون عن تلك الهجمات، ولكن عندما يصلون إلى مرحلة اعتلاء العرش المصري تراهم يتحدثون عنه باقتضاب واختزال وبسرعة، فيخلصون إلى أن الأمر كان سلميا كما سنرى فيما بعد. ولعل أحمد عبد الحليم دراز يوضح ذلك أكثر بقوله "إبان هذه الفترة اشتدت غارات الليبيين على مصر حيث بدؤوا بالإغرات ضد مصر بجرأة ، وجاء أول هجوم خطير في بداية عهد الملك "سيتي" الأول" [5]. ولقد تحدث الآخرون عن هذه الهجمة الخطيرة، ومنهم الدكتور مصطفى كمال عبد

العليم الذي قال: "وفي عهد الملك سيتي الأول (1318-1298 ق.م.) شن الليبيون حوالي عام 1317 ق.م هجمة خطيرة تميزت بالجرأة. وقد اضطر الملك أن يقطع حملته في آسيا ليعود لصد هذه الهجمة."[6] أكيد أنا لا أتحدث عن الهجمات التي حدثت في زمن السيطرة على العرش فحسب، ولكني أعطي أمثلة على أنه كانت هناك حروب طاحنة في الحقيقة بين الأمازيغ والمصريين منذ فجر التاريخ الفرعوني، وهذه الهجمات لم تنته إلا بعد أن استولى الأمازيغ على العرش المصري، أما العلاقة المباشرة بين هذه الهجمة الخطيرة والاستلاء على العرش فهي غير ممكنة، لأنها وقعت في سنة 1317 ق.م، كما قال مصطفى كمال، وليس في سنة 950 ق.م، أي زمن اعتلاء العرش المصري. ولكن الدكتور مصطفى كمال، وإن كان يتحدث عن هذه الهجمات مثل غيره، إلا أن حديثه لا يقل اقتضابا واختزالا عندما يصل إلى اعتلاء الأمازيغ للعرش المصري، حيث نجد وكأن هناك نوعا من التناقض بين حقيقة هذه الهجمات وافتراض سلمية اعتلاء العرش. فهو يتحدث عن الحروب التي دارت بين المصريين والأمازيغ على طول الزمن الفرعوني ما قبل الأسرة الثانية والعشرين بإسهاب، إلا أنه عندما يصل إلى مرحلة اعتلاء العرش يبدي نوعا من التغاضي والاختزال فيقول: "بعد هذه الأحداث التي تعرض لها المشوش. كانت عناصر منهم قد تسللت إلى مصر، واستقرت أسر منهم في الواحات البحرية على الأرجح. وكان من بين هذه الأسر أسرة(يويو واوا). وقد مر بنا أن بعض العناصر الليبية قد عملت في الجيش المصري جندا مرتزقة، ويرجح أن بعض هؤلاء وصلوا إلى مناصب هامة في البلاط الملكي، وإلى مراكز القيادة في الجيش" [7]. يقصد ما تعرض له المشوش على يد رمسيس الثاني، فلقد كان هذا الأخير، كما أسلفت، شديد

البأس كثيرا ما تصدى بحزم للأمازيغ الذين كانوا يهاجمون مصر، وكان، عندما يمسك بأحدهم، يجعله عبرة لأمثاله. يتابع الدكتور مصطفى كمال حديثه عن سلمية الاستيلاء الأمازيغي على العرش المصري قائلا "وجمع شاشانق بين لقبه الديني والعسكري ليدلل على أنه جمع بين السلطتين الدينية والمدنية في مصر الوسطى. واستطاع شاشانق بن نمرود بن شاشانق سالف الذكر أن يسيطر على الدلتا. وانتظر حتى توفي بسوسينس الثاني آخر ملوك الأسرة الواحدة والعشرين فاستولى على الملك و لم يظهر أي عداء للبيت المالك وزوج ابنه سركون من ابنة بسوسينس ليؤكد أهليته لتوليه العرش المصري، وذلك أنه لا يجري في عروقه الدم الملكي. وبمساعدة العناصر الليبية كون الأسرة الثانية والعشرين "[8] بالنسبة إلى زواج "أوسركون الأول" من ابنة الفرعون المصري "بسوسنيس" يبدو لي أن كلام الدكتور مصطفى كمال غير دقيق، خاصة عندما يعلل هذا الزواج بالسعي للحصول على نوع من المشروعية لحكم مصر. ولكن إذا قلنا بأن زواج "أوسركون الأول"، من هذه الأميرة، كان من أجل توكيد أهليته للحكم، على اعتبار أنه لا تجري في عروقه دماء ملكية، فماذا عن "شيشنق" الذي سبقه إلى حكم مصر؟ ربما لو تزوج "شيشنق الأول" من هذه أو تلك الأميرة لكان لهذا الكلام معنى، أما والأمر لم يكن كذلك فلابد من الانتقال إلى نقطة هامة يكشف عنها زواج "أوسركون الأول" من هذه الأميرة، وهي المسألة التي تضعنا في حيرة من أمرنا لأنه من جهة يصعب الحديث عن الاستيلاء الأمازيغي على عرش مصر حتى وإن كان الدكتور مصطفى هنا يخلص إلى سلميته، لكنه تحدث بنفسه مطولا عن تلك الحروب الطاحنة التي اشتعلت بين المصريين و الليبيين (الأمازيغ) وبالتالي فمن الصعب أن نتصور بأن هذا كله قد تحول، بين عشية

وضحاها، إلى اعتلاء العرش المصري بالسلم. ومن جهة أخرى أقول بأن زواج "أوسركون الأول" من الأميرة المصرية يضع أمامنا علامة استفهام قوامها استبعاد أن يكون الاستيلاء على العرش قد تم في ظل أحداث عسكرية ساخنة من طراز السيطرة على عرش الفراعنة. إلا أن ما نلاحظه بوضوح هو أن الهجمات الأمازيغية على مصر قد انتهت، كما قلت سالفا، بعد أن استولوا على العرش المصري وباشروا حكم البلاد والعباد هناك، سواء كانت لهذه الهجمات علاقة مباشرة بالسيطرة على العرش أو غير مباشرة. نجد الدكتور أحمد بدوي من الذين يميلون إلى القول بأن الأمازيغ حكموا مصر بطريقة سلمية، ويقول، في هذا الصدد، بأتم الهدوء: "وكان الليبيون كما نعلم يعملون في الحرص الملكي منذ أيام الأسرة الواحدة والعشرين، وهم قد استطاعوا-بعد لآي-أن يبلغوا العرش فأصبحت لهم أسرة بين الأسر التي حكمت مصر وعرفت عند "منتون" بالأسرة الواحدة والعشرين" [9] من جهة لا أعرف لماذا لم يتحدث الدكتور بدوي عن هذا اللبس في كلام المؤرخ المصري "مانيتون" علما بأن الأمازيغ أسسوا الأسرة الثانية والعشرين وليس الواحدة والعشرين. ومن جهة أخرى نجد في لوائح الملوك الفراعنة التي وضعها المؤرخ المصري مانيتون، حسب الدكتور سيد كريم[10]، أن الفراعنة الأمازيغ جاء ترتيبهم ابتداء من الأسرة الثانية والعشرين حيث نجد شيشنق الأول يتصدر اللائحة المخصصة للأسرة الثانية والعشرين علما بأنه أول فراعنة هذه الأسرة. وكذا الثالثة والعشرين الخ. إن الدكتور بدوي، هو الآخر، من الذين غضوا الطرف عن طبيعة اعتلاء العرش المصري من طرف الأمازيغ، وهو الموضوع الذي يستحق شيئا من التركيز لاسيما فيما يتصل بمصير تلك الهجمات وعلاقتها باعتلاء العرش المصري. وفي إطار البحث عن أسباب تلك

الهجمات، خاصة الأخيرة منها والتي انتهت بالسيطرة على مصر، نأخذ ما جاء به أحمد عبد الحليم دراز، خصوصا إشارته إلى ما تحدث عنه "جوهن ويلسون" في هذا الصدد. يقول الدكتور دراز: "ويفسر ويلسون العوامل الاقتصادية في هذه التحركات تفسيرا ربما يكون مقبولا، حيث يرى أن شعوب البحر حين أخضعوا كريت أصبحوا الخلفاء الطبيعيين للتجارة البحرية الكريتية، ومن المحتمل أنه في تلك الفترة كانت التجارة البحرية المصرية قد أصابها الخمول، من هنا كان الصراع بين شعوب البحر ومصر من أجل تجارة البحر الأبيض المتوسط، وربما كان ذلك هو السبب الذي جعلهم ينضمون إلى الليبيين ضد مصر في هذه الحرب" [11] إذا تناغمنا مع هذا التفسير سنجد بأن ذلك يصب في القول بأنهم سيطروا على مصر بالقوة، في نهاية المطاف، لأن الحرب من أجل تجارة البحر المتوسط، كما نرى، هي أمر جاد وكبير لا يتعلق بغارات طائشة مؤقتة هنا وهناك. بل إن هذا يعني أن الحرب كانت قد تم تحديد إستراتيجيتها من قبل الطرفين؛ المصري والأمازيغي. وأنه ليس من السهل أن يتنازل الفراعنة للأمازيغ عن العرش مادام الأمر يتعلق بتجريدهم من أهم ركن من الأركان الاقتصادية للبلد، ألا وهو تجارة البحر الأبيض المتوسط. ولكن، حتى في ظل قبولنا بهذا التفسير، ليس علينا أن ننسى بأن الأمازيغ، الذين حكموا مصر، لم يجعلوها مستعمرة تابعة لبلادهم الغربية، وإنما كانوا مخلصين لمصر وكأنهم أبناؤها تماما. هنا يبقى أمامنا احتمال الوجه السملي، لاعتلائهم العرش المصري، قائما وإن كان يتنافى مع ما أشرت إليه سالفا. وسعيا منه لمحاولة سد الثغرة التي تجعل القفز من الهجمات الأمازيغية الشرسة، إلى سلمية السيطرة على العرش الفرعوني علامة استفهام، يقول الدكتورمصطفى كمال عبد العليم : "وليس من المستبعد أن

يكونوا قد ساعدوا بني جنسهم من المشوش على الحضور إلى مصر والإقامة بها في حاميات الحدود على الأقل. بل إن الجيش المصري أصبح ابتداء من عصر الأسرة العشرين مؤلفا من الليبيين دون سواهم. وقد منحهم ملوك مصر هبات الأرض كأجر لهم وهكذا استطاعوا أن ينشئوا في البلاد جاليات عسكرية وكان يترأس كل حامية رئيس ليبي يحمل لقب الرئيس الكبير لما. "ما" هي اختصار لاسم مشوش." [12] مادام فراعنة الأسرتين؛ العشرين والواحدة والعشرين كانوا يحاربون الأمازيغ بجيش أمازيغي فربما كانت سياستهم بمثابة الاستنجاد بالنار من الرمضاء. وربما ساهم هذا في جعل مصر قابلة للابتلاع أخيرا وبدون أن تصدر أي صوت. كما ربما حصل هناك نوع من الاستيعاب المصري للأمازيغ، في نهاية المطاف، واعتبارهم أمرا واقعا مصريا لا مفر منه في كل الأحوال. يضيف مصطفى كمال: "أسلفنا أنه بعد أن نجح الليبيون، والمشوش بصفة خاصة، في التسلل إلى مصر والاندماج في أهلها وتمصرهم، وقيامهم بتأسيس أسر حاكمة، أن العلاقات بين الليبيين والمصريين دخلت في دور هادئ و لم يرد في مصادرنا ما نستطيع أن نتعرف منه على مزيد من المعلومات عن الليبيين."[13] هناك نقطة قد تساعدنا على فهم ما يبدو تناقضا بين الاجتياحات العسكرية الأمازيغية المعروفة ضد مصر وسلمية استلام السلطة فيما بعد. لنتأمل ما يقوله مصطفى كمال عن النفوذ الأمازيغي داخل مصر قبيل اعتلاء العرش، يقول: "واستطاع موسن بن ويوواوا أن ينتظم في سلك كهنة الآلهة حرى شف. وشغل كذلك خلفاؤه منصب الكاهن لهذه الآلهة. وتجاوزت سلطتهم السلطة العادية للكاهن. وكان أحد أفراد هذه الأسرة وهو شاشانق قد نصب رئيسا على الجالية الحربية الليبية إلى جانب احتفاظه باللقب الديني. وحدث أن مات له ابن يسمى "نمرود" فدفنه

في أبيدوس. وحدث أن اعتدى على قبره فذهب إلى الملك بتانيس رافعا شكواه. وجاء الملك بصحبة شاشنق إلى طيبة ليستمعا معا إلى حكم الإله آمون الذي حكم وحيه بإدانة الجناة"[14]

لنلاحظ بأن شاشانق كان رئيسا على الجالية الحربية الليبية (الأمازيغية) في مصر، وفي نفس الوقت كان يعيش في سلام مع كل من السلطة الفرعونية والكهنوتية، وهذا يعني أن الأمازيغ كانوا، في هذه المرحلة، قد وصلوا إلى ما كانوا يتطلعون إليه من خلال تلك الحروب التي تحدث عنها المؤرخون وتحدث عنها الدكتور مصطفى كمال عبد العليم ابتدءا من الصفحة 20 إلى الصفحة 32 من كتابه "دراسات في تاريخ ليبيا القديم" والتي تلقى فيها الأمازيغ ما أشبعهم من التصدي والهزائم على أيدي المصريين، كما كانوا ينتصرون أيضا وهكذا طوال التاريخ القديم للبلدين. نستشف من خلال مقارنتنا لما سلفت الإشارات إليه، من أقوال المؤرخين، إلى أن الأمازيغ، الذين كانوا يهاجمون مصر، لم يكن الاستيلاء على السلطة يشكل هدفهم الرئيسي، وإنما كانت الغاية أن يكون لهم ما يكفي من النفوذ في أرض النيل، وربما هذا ما يفسر حديث المؤرخين عن كون اعتلاء العرش كان بالسلم، وفي نفس الوقت كانت تلك الغارات قد انتهت. إن ما يبدو واضحا من كلام الدكتور مصطفى كمال هو أنه كان هناك نوع من توازن القوى، في مصر، بين القائد شيشنق والفرعون المصري، لأن اكتفاءنا بالحديث عن كون شيشنق كان يقدم خدمات عسكرية للفرعون مقابل ما يجود به الفرعون عليه، من الهبات الأرضية وغير ذلك، لا يكفي لنلامس الذي حدث. فعلى سبيل المثال نجد أن شيشنق وجنوده كانوا يتمتعون بنوع من الاستقلال عن السلطة الفرعونية رغم كونهم داخل الأراضي المصرية، وهذا قد يتناقض مع مبدأ

السيادة الفرعونية من جهة، ومن جهة أخرى نجد أن الهجمات الغربية، كما قلنا، توقفت بعد أن أصبح شيشنق وأتباعه داخل مصر. حتى وإن قبلنا بأنهم تسللوا أو ذهبوا في نزهة أو ما شابه فسيكون علينا ألا ننسى هذه الأمور. ثم إن الخوض في شؤون الكهنة لم يكن بالأمر السهل فلا بد أن شيشنق كان قد خطط لهذا المشروع بجدية عالية قصد الحصول على أهلية التدخل في شؤون الدين والسياسة معا كما رأينا. إذن فلو تحدثنا عن التراضي والسلم المطلقين وافترضنا بأنهما كانا أساسيين في الاستيلاء على العرش المصري فسيبقى أمامنا أن نجيب عن مصير تلك الهجمات وكيف لم يخش الفرعون من شيشنق مثلا أن ينقلب عليه مادامت الحروب لم تتوقف بين البلدين منذ قرون. وفي نفس الوقت لو افترضنا بأن الأمازيغ قد استولوا على العرش المصري بالقوة العسكرية المطلقة فسيكون علينا أن نجيب على الهدوء الذي اكتنف لحظة اعتلاء العرش وما يتعلق بزواج أوسركون الأول من الأميرة الخ. إن هذه النقطة تقربنا من فهم ما يبدو تناقضا بين الاجتياحات العسكرية التي لم يتوقف الأمازيغ عنها ضد مصر وبين ما نراه من السلم والهدوء أثناء استلامهم السلطة. يقول الدكتورمصطفى كمال عن الفرعون بتانيس: "وأرسل ترضية للشاكي تمثالا على صورة ابنه ليوضع في معبد أوزيريس في أبيدوس. وهذا الحادث يوضح مدى قوة شاشانق وأسرته وأنهم اعتنقوا ديانة المصريين حتى أن شاشانق خضع لقرارات وحي آمون كما فعل أي مصري." [15] على كل حال يبدو أن النفوذ الأمازيغي داخل مصر كان قائما منذ زمن طويل جدا حتى وإن اشتد أكثر، في الآونة الأخيرة، وحتى وإن جنح للسلم والهدوء. يقول مصطفى كمال: "وقد سبق أن ذكرنا أن (وني) قائد الجيش في عهد الملك بيي الأول قد ذكر أن جيشه كان يضم فرقة مرتزقة

من التمحو.[16] وأذكر القارئ بأن التمحو هم الأمازيغ الذين كانوا يهاجمون مصر وذكرتهم الآثار المصرية بهذا الاسم كما سماهم غير المصريين به أيضا. يواصل مصطفى كمال قائلا"وقد يفسر ذلك بأن التمحو عرفوا طريقهم إلى الاستقرار في مصر بعيدا عن جو المناوشات والإغارات منذ وقت مبكر. ونضيف إلى ذلك أن حاكم القوصية في عهد أمنمحات الأول وكان اسمه (سبنى) قد صور وهو في طريقه إلى الصيد وخلفه تابعه يحمل أسلحته وكلاهما كان يلبس قراب العورة. ويلاحظ أيضا أن سبنى كان يلبس على صدره شريطين متقاطعين وأن تابعه يتحلى بريشة مثبتة في رأسه. فإذا سلمنا بأن هذا الحاكم من أصل ليبي فإنه من المرجح أن تكون أسرته قد دخلت مصر في العهد الإقطاعي الأول " [17] ولعل من الجدير أن أشير، في هذه النقطة، إلى أن هناك احتمالا قويا بأن يكون الفراعنة القدماء من أصل أمازيغي، ربما استقروا على ضفاف النيل ودخلوا في حياة الزراعة هناك، إلا أن هذا الموضوع مازال يحتاج إلى كثير من البحث والتمحيص كما أنه ليس موضعي هنا الآن. إن ما يمكن أن نتوصل إليه، من خلال مراجعتنا لما يقوله المؤرخون عن الاحتكاك الذي كان قائما بين البلدين؛ الأمازيغي والمصري، هو أن الحرب التي كانت مشتعلة بين الطرفين قد مهدت الطريق فعلا، أمام الأمازيغ، للدخول إلى مصر حتى وإن لم تفض بشكل مباشر إلى استلام السلطة في بداية الأمر. يبدو أن الأمازيغ دخلوا مصر على عدة جبهات، منهم من كان مرتزقا لدى الفراعنة ومنهم من تسلل بطريقة مدنية ومنهم من فرض نفسه بالقوة حتى وإن لم يثقل على السلطة بحيث يجعلها أمام خيارين لا ثالث لهما؛ إما التنحي عن العرش المصري وإما الحرب، لهذا نجد أن النفوذ الأمازيغي، العسكري والمدني معا، كان قائما في مصر وفي نفس الوقت

كان هناك هدوء وتعايش سلميان. وربما أدى هذا إلى ترسيخ صورة شيشنق بشكل أكثر إيجابية في نفوس المصريين. وما لا شك فيه أن نفوذ شيشنق في مصر قد فتح الباب، أمام الأمازيغ، للدخول إلى مصر مما حد من الهجمات الغربية التي كان يتلقاها العرش المصري.

من المعلوم أن ما كتب حول الحضارة الفرعونية يفوق ما كتب حول الحضارة الأمازيغية، وذلك راجع لسببين رئيسيين؛ الأول هو أن مصر التفت إليها الباحثون بسبب الأهرامات وما يصب في موضوعها من الأثار والكنوز النادر لها مثيل في العالم، أما السبب الثاني فهو راجع إلى التآمر الكلونيالي الممنهج الذي تعرض له كل ما هو أمازيغي. ولقد شاءت الأقدار أن تتقاطع مصلحة الغرب مع مصلحة الشرق في الإبقاء على ما هو أمازيغي تحت الثرى، فذلك واضح لا يحتاج للتأمل حتى. ولكن بعد، أو قبل هذا كله، أعتقد بأنه من الأجدر أن نتساءل ما إذا كانت الأمة الأمازيغية، التي يحاول بعض الكلونياليين أن يسيؤوا تصويرها، مؤهلة للسيطرة على مصر الفرعونية وحكمها طوال تلك المدة الزمنية أم لا، وهو التساؤل الذي تقتضي مستلزمات الجواب عنه أن نقول بأن هذه الأمة لم تكن كما حاولوا تصويرها واختزالها، بل كانت متحضرة وفي المستوى المطلوب من الوعي. أعتقد أن القارئ النمطي للمؤرخ النمطي سيجد مفارقة في هذا الموضوع تنم عن تناقض يبدو أن بعض المستهينين بالأمازيغ القدماء قد وقعوا فيه عندما اعتقدوا، أو أرادوا أن يعتقدوا، بأن هؤلاء كانوا مجرد أمة بعضها يسكن الكهوف والبعض الأخر لا أدري ماذا كان يفعل. السؤال الحاسم في هذا الصدد هو التالي:

هل كان المستوى الحضاري للأمازيغ في مستوى مصر الفرعونية حتى نتحدث عن الاستيلاء عليها وحكمها طوال ما يزيد عن قرنين ونصف من الزمن؟ سأحاول الإجابة عن هذا السؤال بإيجاز راصدا ما أمكن من تفاصيل الحياة التي كان يتقاسمها الشعبين الأمازيغي والفرعوني قصد الوصول إلى ما أمكن من العناصر الحضارية التي يمكن الحديث عن أنها كانت فاصلة أو مشتركة بين الشعبين والتي يتحدد بمقتضاها مستواهما الحضاري. عندما نترل من الأبراج العاجية إلى الواقع الملموس نجد من الممكن القول بأن الأمازيغ لم يكونوا أقل شأنا من الفراعنة إلى الحد الذي قد يتصوره شخص قليل الاطلاع. أنا لن أبدأ هنا من الأهرامات لرصد ما أمكن من المشتركات الحضارية بين الشعبين أو رصد عناصر تفوق هذا على ذاك، بل سأبدأ مما هو يومي يمس حياة الفرد عن قرب وبشكل مبسط من أجل أن نأخذ صورة تقريبية للحالة الحضارية التي كان يعيشها الشعبين القديمين. إن طبيعة العيش اليومي لم تكن راقية عند الفراعنة ومنحطة عند الأمازيغ كما ربما يتصور البعض، فلننظر مثلا ما يقوله المؤرخ اليوناني هيرودوت، في حديثه عن النظافة والصحة لدى الفراعنة، كبداية الطريق نحو الواقع الذي كان يعيشه الشعبين الفرعوني والأمازيغي، ومن ثم نقترب شيئا فشيئا إلى علاقة ذلك بالمظاهر التاريخية الكبرى التي ربما سطرت المسار المشترك بين الشعبين وحددت طبيعة التفاعل الاجتماعي والسياسي وحتى العسكري بينهما. إذا انطلقنا من هذه النقطة سنجد بأن هيرودوت مثلا لم يجعل الأمازيغ في مستوى الفراعنة فحسب، وإنما جعلهم فوق الفراعنة ! يقول في حديثه عن الفراعنة:" مراعاة لصحتهم يتناولون ثلاثة أيام متتالية من كل شهر مقيئات، وحقن شرجية، إذ يعتقدون أن جميع الأمراض تصيب الناس من الأطعمة التي

نتغذى بها، وهم ، حتى بغير ذلك، أصح الناس عامة بعد الليبيين." [18] مع العلم أن الليبيين هم الأمازيغ. وعندما ينتقل إلى الحديث عن الأمازيغ، في هذا الصدد، يقول:"والناس هنا يختلفون عن سواهم في نمط الحياة عموما كما في نهجهم في معاملة الأطفال، فهناك الكثير من البدو- ولست أقول كلهم- يعمدون إلى كي عروق الرأس والصدغين أحيانا، حين يبلغ الطفل الرابعة من العمر، بوضع قطعة من الصوف مدهونة بالشحم على المنطقة التي يراد كي العروق فيها، فيكون ذلك تحصينا له من الزكام . ولذلك تجد أطفال هؤلاء القوم أسلم الناس في العالم صحة، أو أنهم، وهذا حق، أفضل صحة من أي عرق آخر عرفته، وإن كنت غير واثق من أن هذا هو السبب في سلامة صحتهم. أما أنهم يتمتعون بصحة ممتازة فحقيقة ثابتة مؤكدة." [19] حتى في موضوعه المخصص للحديث عن مصر لم ينس هيرودوت أن يشير إلى ما كان معروفا آنذاك، في هذه المسألة، وهو أن الأمازيغ القدماء كانوا يتمتعون بصحة جيدة وأنهم شعب كان يهتم بنفسه شكلا ومضمونا يراعي مبادئ الصحة والنظافة، وهذا ما يتنافى مع الحديث عن شعب بدائي لم يكن يهمه سوى أن يأكل ويشرب. إذا كان هيرودوت قد جعلهم في مرتبة أعلى من الفراعنة، في هذا المجال، فنحن نعرف بأن الفراعنة لم يكونوا مجرد شعب عادي بسيط بدائي حتى نستهين بمثل هذه المقارنات. كما أن هذه الأشياء اليومية، التي تبدو تافهة نوعا ما، هي التي تجعلنا ننفذ إلى الواقع المعيش أنذاك قبل أن ننتقل إلى البنية الفوقية التي تشكلها الطبقة السياسية أو العسكرية. ما دمنا نتحدث عن الأمازيغ الفراعنة فلابد أن نترل إلى الأرض لنرى كيف كانت حياتهم اليومية بالنسبة إلى الفراعنة الذين أزاحوهم عن عرش مصر في يوم من الأيام. هناك جوانب أخرى نستشف من خلالها أن

الأمازيغ كانوا في المستوى المطلوب من التحضر الذي كان يمليه العصر آنذاك، ففي حديثه عن التحالف المنعقد بين الأمازيغ وشعوب البحر، على سبيل المثال وليس الحصر، يقول فوزي جادا الله: " وكانت الزعامة في هذا التحالف لليبيين دائما وهذا يعني أن القبائل الليبية كانت قوية ومتحضرة بما سمح بأن يدين لها بالزعامة أصحاب الحضارة الإيجية السابقة للحضارة الإغريقية الكلاسيكية " [20] ويقول الدكتور مصفى كمال عبد العليم في هذا الصدد : "يبدو أن المشوش لم يكونوا غير متحضرين، بل يستدل من وصف أسلحتهم من سيوف وعجلات حربية، أنهم كانوا مسلحين سلاحا قويا ومنظما. وكان استعداد الفرعون لملاقاتهم يتناسب مع خطورة هجومهم وقوة سلاحهم." [21] ومن المعلوم أن المشوش أو المشواش هي القبيلة الأمازيغية التي أنجبت شيشنق الأول وغيره من الأمازيغ الذين استولوا على العرش المصري. هذا ما يتغافل عنه بعض المؤرخين، فعندما يتحدثون عن سيطرة الأمازيغ القدماء على العرش المصري ينسون بأن ذلك لم يكن بالأمر السهل سواء حدثت السيطرة بالقوة أو بالسلم. فلا بد من الإدراك بأن الأمازيغ القدماء كانوا أمة متحضرة قوية واعية تعرف إلى أين تسير وليس كما يحاول ذوو الأدوار الكلونيالية المعروفة أن يختزلوها ويهمشوا دورها في تاريخ هذه المعمورة. إذا انتقلنا إلى مظهر آخر، من هذه المظاهر الأساسية، نجد أن الشعب المصري ربما كان أقل تمتعا بالحرية التي كان يتمتع بها الشعب الأمازيغي، وربما كانت هناك شريحة، على الأقل، من الشعب المصري تفضل الانتماء إلى الأمازيغ على انتمائها إلى مصر الفرعونية. يقول المؤرخ اليوناني هيرودت. : "حدث أن أهل مدينتي "ماريا" و "آييس" الذين يسكنون من مصر أجزاءها التي تتاخم ليبيا، كانوا يعتبرون أنفسهم ليبيين لا

مصريين، وذلك لما أثقلتهم الشعائر الدينية بما لا طاقة لهم به، ورغبوا في أن يأكلوا لحم البقر وأرسلوا إلى آمون مدعين أن ليس هناك شيء يجمع بينهم وبين المصريين، لأنهم يسكنون خارج الدلتا وأن ليست بينهم وبين المصريين صلة في اللغة. وأنهم شاءوا أن يحل لهم أكل كل طعام، ولكن الإله لم يسمح لهم بذلك" [22]. الملحوظ هنا أن هؤلاء المصريين- حسب ما جاء به المؤرخ اليوناني هيرودوت- كانوا يفضلون الانتماء إلى الأمازيغ إن لم نتحدث بلغة السياسة ونقول بأنهم كانوا يفضلون الانضواء تحت الحكم الأمازيغي أنذاك، لاسيما المتاخمون منهم للأراضي الأمازيغية. لكن الدكتور أحمد بدوي قال بأن هاتين المدينتين تقعان في الصحراء الليبية [23] وفي الحقيقة نجد هناك بعض الاختلاف لا شك أنه عائد إلى طبيعة الترجمة حيث نجد في الكتاب الثاني من تاريخ هيرودوت، الذي ترجمه عبد الإله الملاح، أن حديث هيرودوت عن هاتين المدينتين جاء كالتالي: "وقد علمنا أن سكان "ماريا" و"ابيس" الذين يقيمون على الحدود الليبية قد ضاقوا ببعض أعراف الدين، وخاصة تحريم أكل لحم العجل فبعثوا إلى معبد "آمون" من يقول أنهم لا يرون أنفسهم ملزمين باتباع أعراف المصريين، فهم ليبيون ولا يمتون لهم بصلة، ويقيمون خارج الدلتا ويرغبون بالتالي أن يعيشوا كما يشاءون. لكن الكاهن رد طلبهم وأعلن أن مصر هي الأرض التي يرويها النيل، والمصريون هم جميع الناس الذين يعيشون ما وراء الألفنتينا وينهلون من مائه" [24] والألفنتينا موقع جنوب "أسوان" حسب ما جاء في شرح عبد الإله الملاح [25] ففي ترجمة الدكتور محمد صقر خفاجة للكتاب الثاني من تاريخ هيرودوت، وهو الكتاب الذي يحمل عنوان "هيرودوت يتحدث عن مصر"، نجد الحديث هنا عن مسألة اللغة التي يبدو أنها كانت مختلفة، بعض

الشيء، بين أهل هاتين المدينتين وباقي سكان مصر، وهو الشيء الذي لم يرد في ترجمة عبد الإله الملاح الذي يقول في مقدمة الكتاب "وقد أثرنا تقديمه بالعنوان الذي عرف به في كتب المؤرخين "تاريخ هيرودوت" منقولا عن الترجمة الإنجليزية التي أنجزها "جورج رولنسون" بطبعتها المنقحة الصادرة عام 1936" هذا يعني أن ترجمة "جورج رولنسون" أيضا لم يرد فيها الحديث عن الاختلاف اللغوي. وسواء ذكر هيرودوت مسألة اللغة هنا أو لم يذكرها فإن الاختلاف اللغوي، الذي أشار إليه أهل المدينتين المتاخمتين لليبيا (أرض الأمازيغ)، يرجح أنه كان عبارة عن إحدى الذرائع التي توسلوا بها إلى معبد آمون من أجل تخليصهم من الانتماء إلى مصر.

وكما يقال أن الغاية تبرر الوسيلة فليس بالضرورة أن يكون هناك اختلاف لغوي بالمعنى الكبير كالاختلاف بين العربية والهيروغليفية مثلا. فما دمنا في إطار الحديث عن قوم أرادوا الانفصال عن مصر بسبب تلك الأعراف الدينية المشار إليها سالفا، فقد يكفي أن يكون هناك اختلاف طفيف بين لهجتهم وباقي اللهجات المصرية الأخرى حتى يضيفوا ذلك إلى قائمة مبرراتهم للانفصال. أما الرد المخيب للآمال، والذي جاءهم من معبد آمون، فهو يؤكد بأنهم مصريون، ثم إنهم لو كانوا أمازيغ لقال هيرودوت بأنهم ليبيون وليس مصريين. على كل حال هذا لن يغير شيئا في كون هذه النقطة تستحق وقفة تأمل. إن هؤلاء الذين أرسلوا إلى معبد آمون من أجل الانسلاخ عن الهوية المصرية والاندماج في الهوية الأمازيغية، حسب ما نستشفه من موقفهم، يكشفون لنا عن طبيعة الاستساغة الشعبية للسياسة الفرعونية التابعة، في كل صغيرة وكبيرة، لمؤسسة آمون الكهنوتية. إذا كان دافعهم للتبرؤ من السياسة المصرية الفرعونية يتمثل في ضيقهم

بتلك الأعراف والطقوس الدينية، التي تحدث عنها هيرودوت، فمن المعلوم أن هذه الأعراف كانت تنطبق على جميع سكان مصر الواقعين تحت الحكم الفرعوني. وهذا ربما يجيز لنا تعميم الحديث عن الضيق بالنسبة إلى البسطاء المصرين، على الأقل، والذين لم يكونوا مختلفين اقتصاديا عن هؤلاء الذين تحدث عنهم هيرودوت فهذا أمر يبدو طبيعيا. يقول هيرودوت في هذا الصدد:" "ولكن من المحظور عليهم تناول السمك، أما البقول فهي ممقوتة عند المصريين فلا يزرعونها أو يأكلونها، نيئة أو مطهية" [26] هذا مثال فقط على القيود الدينية التي تغلغلت في أدق تفاصيل العيش اليومي لدى الفراعنة. على أنه لا بد من الإشارة إلى أن هناك تناقضا، في حديث هيرودوت ربما، حول ما يتعلق بأكل لحم العجل، فإذا كان يقول بأن أولائك المصريين، المتاخمين لبلاد الأمازيغ، كانت رغبتهم في أكل لحم العجل واحدة من أسباب عزمهم على الانفصال عن مصر- حسب ما نستشف من كلامه- فلقد قال في موضع آخر" وسأقتصر في هذا المقام على عرض النهج الشائع في التعامل مع القرابين المقدمة للآلهة التي يبجلونها أشد التبجيل أيزيس ويخصونها بأعظم احتفالاتهم. وقد جرت عاداتهم على أن يطلقوا ألسنتهم، بعد سلخ جلد الثور، بالأدعية، فإذا انتهى الدعاء انتزعوا الكرش والأمعاء، تاركين الأحشاء الأخرى والدهن. ويعمدون بعدئذ إلى تقطيع أعضائه من القوائم وما بين الأضلاع والظهر والكتفين والرقبة، ثم يحشون الثور بالخبز والعسل والزبيب والتين والبخور والمر وغير ذلك من التوابل ثم يسكبون كميات من الزيت فوق لحم الأضحية ويشوونها، وجرت العادة على أن يصوموا قبل التضحية وأن يضربوا صدورهم بقبضاتهم أثناء شوي اللحم. وإذا انتهى هذا الطقس التفتوا إلى تناول الوجبة من الأجزاء التي بقيت."[27] إذا لم يكن هذا

تناقضا فهو يعني أن السياسة الكهنوتية، لدى الفراعنة، كانت تجيز لبعض النخب أن تأكل لحم العجل بينما تحرمه على العامة. ولعل ما ينشط هذا الرأي أن حديث هيرودوت عن أكل لحم العجل ورد في إطار طقوس دينية (القرابين)، وهذا يعني أن الآكلين هم نخبة محددة قد لا تتعدى طبقة الكهنة أو ما شابه، بينما جاءت الإشارة إلى حظر هذا اللحم في إطار الحديث عن عامة الشعب، أي سكان مدينتي؛ "ماريا" و"آبيس" المتاخمتين لبلاد الأمازيغ (ليبيا). وكما أشار الدكتور أحمد بدوي، في شرحه للكتاب الثاني من تاريخ هيرودوت والذي يحمل عنوان "هيرودوت يتحدث عن مصر"، فإن هيرودوت قد وقع في بعض الالتباسات على أن ذلك لا يعني أن كل ما قاله عبارة عن أخطاء. من المعلوم أن تلك الأعراف الدينية، إذا لم تكن عبئا على الطبقة الميسورة، فلقد كانت، بطبيعة الحال، تنطبق على كل بسطاء مصر سواء كانوا من المتاخمين لبلاد الأمازيغ أو غيرها. عندما ندقق في هذه الأمور نجد أنه ربما يجوز القول بأن عدم اشتعال ثورات المصريين ضد الفراعنة الأمازيغ، الذين حكموا مصر لما يزيد عن قرنين ونصف، عائد إلى رضاهم نوعا ما على السياسة التي كان الأمازيغ يتبعونها في حكمهم لمصر. والحق أن هيرودوت قد تحدث، في مواطن أخرى، عن كثرة العبادات لدى الفراعنة مما يبعث على استصعاب الحياة هناك نوعا ما بالنسبة للطبقة الدنيا، و لا يتسع المجال الآن لذكرها بل أكتفي فقط بالأمثلة التي تصب في الموضوع مباشرة لا أكثر. إن شيشنق الأول لم يكتف بالتدخل في السياسة المصرية، قبل اعتلائه العرش المصري، بل تدخل حتى في شؤون الكهنة مع العلم أنه كان قد حصل على لقب ديني في مصر إضافة إلى لقبه السياسي. ورغم أنني لا أملك ما يكفي من الأدلة على أن سيطرة الأمازيغ على مصر قد ترتب عنها

نوع من التغيير الكهنوتي(الديني)، الذي ربما أصبح في صالح الشعب المصري نسبيا، إلا أنني أظن بأن المصريين، في ذلك الوقت، كانوا يرون في الحكم الأمازيغي ما يقربهم إلى بعض الحرية بالمقارنة مع النظام الفرعوني الذي لم يكن يكبلهم بأصفاده الاستعبادية فحسب، وإنما كانوا يعانون أوتوقراطية كهنوتية دينية تبارك هذا الاستعباد السياسي باسم الألهة المعنية بالأمر كالعادة، وتجعله قائما على منطق الرب وشريعته، وهذا هو الأخطر لأنه الأصعب والأكثر تجذرا. لست هنا لأهاجم الحضارة الفرعونية، كما قد يظن البعض، فالحق أنها أكبر من أن يهاجمها أحد، ولكن ما أقوله يمكن استخراجه من كلام المؤرخين الذين تحدثوا عن مصر القديمة وعلى رأسهم اليوناني هيرودوت. فمن خلال حديث هذا الأخير عن السكان المتاخمين لبلاد الأمازيغ، وأنهم كانوا يفضلون أن يكونوا أمازيغ (ليبيين)، وقد بعثوا إلى معبد آمون يدَّعون أو يطلبون الإذن بالانسلاخ عن الهوية المصرية، أعتقد أن هؤلاء المصريين كانوا أدرى بشعابهم وكانوا يعرفون جيدا لماذا فضلوا الانتماء إلى الأمازيغ عن انتمائهم إلى مصر الفرعونية. حتى وإن افترضنا بأن هؤلاء كانوا يتواجدون داخل الأراضي الأمازيغية، كما أشار الدكتور أحمد بدوي، وبالتالي كان رفضهم للهوية المصرية يعكس الواقع السيادي للبلد، إلا أن الأمر لن يتغير إذ يمكننا أن نطرح السؤال كالتالي: مادامت الأمور السيادية في يد القيادة، كما يعرف الجميع، فلماذا تولت هذه الشريحة الشعبية مهمة الإرسال إلى معبد آمون بغرض توضيح هويتهم؟ ثم، لو كان الحكم الفرعوني أفضل من الحكم الأمازيغي وأقرب منه إلى الشعب آنذاك، أفلم يكن من المعقول أن نجد هؤلاء يبعثون إلى معبد آمون يدعون بأنهم مصريون وليس العكس؟ أعتقد أن بعض المؤرخين، الذين تحدثوا عن هذه الفترة، من

تاريخ مصر القديمة، ينسون التطرق إلى مثل هذه التفاصيل والدقائق مع أنها قد تكون لها أدوار حاسمة في بعض التحاليل التاريخية. إن ما لا شك فيه أن حضارة الفراعنة تكاد لا تصدق لعظمتها إلا أنه لا بد من القول بأن ذلك قد تم على حساب الشعب. فالأهرامات، على سبيل المثال، لا يمكن بناؤها في ظل حكم اشتراكي أو ديمقراطي، إن جاز التعبير، وذلك لأنها لم تكن تعني الأغلبية، التي تتكون من البسطاء المصريين، في شيء. فهي لم تكن قريبة من حياتهم اليومية. وبالتالي لم يكونوا يرون فيها إلا شهوة الفرعون وطغيانه ونزوعه نحو الاستعباد.لا بد من القول بأن تلك الأهرامات تدل على الشرخ الأعظم الذي كان قائما بين الحاكم والمحكوم في مصر آنذاك. من الجدير أن نذكر بأن ما نراه نحن الآن، من مظاهر الحضارة الفرعونية، مبهرا لم يكن كذلك بالنسبة للشعب المصري القديم. فها هو هيرودوت يشير إلى تلك الأصفاد الكهنوتية التي كانت تكبل الشعب المصري بأعداد مخيفة من طقوس الدين والعبادات التي كانت تصب كلها في خدمة الفرعون الحاكم وطبقة الكهنة. نحن ننظر إلى حضارة الفراعنة من الخارج وننبهر لكن لو كنا من الشعب الذي تم بناء هذه الحضارة على أكتاف أفراده لكان لنا رأي آخر. وهذا لا يعني أنني ضد ما جاءت به أخبار وأثار حضارة النيل العظيمة، بل أحاول أن أصل إلى ما تيسر من الواقع الفرعوني الشعبي الذي كان قائما آنذاك لا أكثر ولا أقل. إذن ينبغي القول بأن الفراعنة قد نجحوا في إيصال حضارتهم إلينا وأن لكل شيء ثمن في النهاية دون أن يتنافى ذلك مع النظرة الموضوعية إلى الظروف التاريخية والسياسية التي اكتنفت ميلاد هذه الحضارة. إذا لم ينس المؤرخ مثل هذه الأمور وحاول أن يتمثل الأجواء المدنية، التي بنيت فيها تلك الحضارة، فسوف ينظر إلى هذه

الأخيرة من تاريخها الداخلي وليس الخارجي، وإذا نظر إليها من تاريخها الداخلي فسيدركها من داخل السياق أيضا وليس من خارجه. وهذا يعني أنه لن يبدأ من الأهرامات، في تناول التاريخ الحضاري الفرعوني، بل سيبدأ من مظاهر العيش اليومي للمصريين أولا لأن ذلك لا يسهل عليه تفسير الأوضاع الاجتماعية أو السياسية، التي كانت قائمة في ذلك الوقت والبلد فحسب، وإنما قد يساعده على تفسير حتى طبيعة التفاعل السياسي الخارجي لهذا البلد مع البلدان المجاورة. هذا ما يجعلنا ميدانيا نقترب شيئا فشيئا من فهم طبيعة الاستيلاء الأمازيغي على عرش مصر وطبيعة استمراره في الحكم دون أن يتعرض لثورات المصريين طوال تلك المدة. هذا أجدى من أن نضع الأمور بين نظريتين لا ثالث لهما؛ وهي إما أن يكون الأمازيغ قد حكموا بإرادة المصريين وبطريقة سلمية، كما يقول بعض المؤرخين، وإما أن نقول بأنهم حكموها بالقوة هكذا دون أن ندخل إلى الواقع الذي كان يلامسه الشعبان آنذاك ونفهم، بصورة تقريبية، ماذا كان يجري خلف الكواليس. ففي إطار فهمنا للحيثيات والأجواء، التي كانت سائدة قبيل استيلاء الأمازيغ على مصر بقيادة "شيشنق الأول"، يمكن أن نقترب قليلا من فهم طبيعة السيطرة الأمازيغية على مصر. وذلك من خلال استيعاب ما يمكن من طبيعة جذورها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية قبل العسكرية الحاسمة. إذا كان هناك، في مصر الفرعونية، من كان يعاني من الضيق الذي تحدث عنه المؤرخ اليوناني هيرودوت، وأن السكان المتاخمين لبلاد الأمازيغ كانوا يريدون الانسلاخ عن مصر، للأسباب المذكورة سالفا، فلقد كانت مصر، علاوة على ذلك، قد دخلت في نوع من الاحتضار الاقتصادي الناجم عن الإمعان في الاستخفاف بالشعب المصري لدرجة مخيفة.

لقد حصل هناك إنفاق مخيف على المعابد بتبذير وإسراف هستيريين على حساب الشعب المصري طبعا. على سبيل المثال" تذكر بردية "هاريس" أن دخل هذه المعابد وحدها بلغ في عهد رمسيس الثالث ما يعادل 62 كيلو من الذهب و1189 كيلو جراما من الفضة 2855 كيلوجراما من النحاس وأن مراعيه كانت تؤدي 42362 رأسا من الماشية الكبيرة والصغيرة، أهدي منها رمسيس الثالث 28337 رأسا دفعة واحدة، كما دخل معابد مصر حيذاك نحو مائة ألف مكيال من الغلال، واستأثرت بخيرات 169 مدينة وقرية في مصر وخارجها وامتلكت أكثر من 88 سفينة ونحو 50 ترسانة لصناعة السفن وإصلاحها"[28] فانطلاقا من هذه المعطيات، كأمثلة على الأوضاع الاقتصادية المزرية التي كان يعيشها الشعب المصري في ذلك الوقت، يمكن أن نفهم أكثر ما معنى أن يتحدث هيرودوت عن تفضيل بعض المصريين للهوية الأمازيغية، أو بالأحرى الإنتماء إلى بلاد الأمازيغ.

مما لا شك فيه أن هذه الأرقام تعتبر غنية عن التحليل، فهي احتضار اقتصادي واضح يدل على التهميش العظيم الذي تعرض له المصريون آنذاك وخاصة في عهد رمسيس الثالث. أكيد أنا لا أعني أن الأمازيغ قد سيطروا على مصر في عهد رمسيس الثالث، ولكن ما جاء ذكره من الفساد الاقتصادي وغيره كان يمهد لذلك بلا شك.

يضيف أحمد عبد الحليم، إلى ما ذكرته أعلاه من كلام هيرودوت عن ضغوط الدين التي كان المصريون عرضة لويلاتها، فيقول: "علاوة على كل هذا كانت هذه المعابد لا تؤدي ما هو مفروض عليها من الضرائب، وذلك لتولي عائلات كبار الكهنة للوظائف المهمة في الدولة" [29] وهكذا كانت حدة الأزمة تسير في خط تصاعدي "وقد زاد فراعنة هذه الفترة من الحدة الاقتصادية التي كانت تعاني

منها مصر وذلك عندما أسرفوا في إقامة المنشآت المعمارية، فحفروا مقابر ضخمة على غرار من سبقوهم في العصور الزاهية." [30] ربما كان ما يجري، ضد الشعب المصري آنذاك، في صالح الأمازيغ على كل حال وليس بمقدورنا أن ننكر رغبة البلدان في استعمار الأخرى حتى وإن كنت أعتقد بأن الأمازيغ كانوا مخلصين، إلى حد ما، للعرش المصري، وأن استيلاءهم على مصر لا يدل إلا على أنهم كانوا شعبا متحضرا واعيا جدا، وإلا فمن كان سيمنعهم من استئصال الأخضر واليابس المصريين بحيث يقومون بالشطب على كل المنجزات الفرعونية التي تعود إلى الفراعنة المصريين السابقين طوال مدة حكمهم؟.

نحن نعرف ماذا فعل المغول في بغداد وغيرها، لأنهم شعب همجي بامتياز. وما كان للهمجي أن يفعل أقل من ذلك، أما الأمازيغ، الذين حكموا مصر، فإن الآثار المصرية كلها تشهد بأنهم كانوا في غاية الوعي والتحضر، وأنهم لم يسيئوا إلى كتابة أو أثر أو كتر أو غير ذلك أبدا. ولكن للأسف نرى المؤرخين يتغاضون عن هذه الأمور، في كثير من الأحيان، إن لم نقل يتغاضون عنها دائما وكفى. لقد كانت فرنسا تحمل بواخر تلو أخرى من الكنوز والأرزاق من مستعمراتها، وعلى رأسها المغرب والجزائر، حتى أنها كانت تنهب كل صغيرة وكبيرة بما في ذلك التين المغربي، مع العلم أن الاستعمار الفرنسي جاء في وقت متأخر من الزمان والتاريخ. ولقد كان يفترض به أن يكون أكثر وعيا من الأمازيغ القدماء الذين حكموا مصر قبل ألاف السنين !.

ولكن يجب أن نقول، بصراحة، أن الأمازيغ القدماء قد احترموا أرض النيل، سواء دخلوها بالقوة أو بالسلم، وأنهم إذا كانوا قد استولوا على العرش المصري في سنة 950 أو 945 قبل الميلاد فبكل بساطة ومسؤولية أقول بأنهم، والتاريخ

يشهد، كانوا أكثر إخلاصا لمصر من الإسبان والفرنسيين الذين دخلوا المغرب سنة 1912 بعد الميلاد .لنحاول ما أمكن من التدقيق في هذه النقطة وذلك بأن نستجليها في ضوء المقارنة الممكنة بين طبيعة الحكم الأمازيغي والفرعوني القديمين، إذا كان الحكم الفرعوني معروفا بالاسترقاق شبه المطلق فإن الأمازيغ بكل بساطة لم يكونوا كذلك، بل كانوا يتمتعون بحرية لا بأس بها نسبيا بالمقارنة مع الفراعنة "وكانت السلطة في القبيلة لرئيسها أو ملكها، وإلى جانبه يوجد مجلس القبيلة المكون من كل الرجال الكبار. وكان المجلس يجتمع كما هو الحال بالنسبة لقبائل الأوسيس كل ثلاثة أشهر أي مرة في كل فصل من فصول السنة. [31] ويعرف المؤرخون بأن الأمازيغ القدماء كانوا يتمتعون بما يمكن أن نسميه الحكم الفدرالي حيث كان لكل قبيلة رئيسها أو شيخها وفي النهاية نجد لهؤلاء الرؤساء رئيسا أكبر، وهو بمثابة الرئيس الفدرالي في يومنا هذا، وكان هناك حكم ديموقراطي نسبيا بالمقارنة مع الآخرين أو الفراعنة بالتحديد. حتى أن بعض النقوش المصرية قد تحدثت عن رئيس الرؤساء أو الزعيم الأعظم للمشوش أو الليبيين (الأمازيغ). يقول الدكتور مصطفى كمال عبد العليم: "وإذا انتقلنا من مجتمع الأسرة إلى مجتمع القبيلة، وجدنا أنه كان يرأس القبلية زعيم أو رئيس من أسرة معينة تحتكر لنفسها زعامة القبيلة. وكان هذا الزعيم ينحى عن الرئاسة إذا ثبت عدم كفاءته، ويعهد بمنصبه إلى أحد أعضاء[32] الأسرة الآخرين، كما حدث في حالة الأمير "مريبي بن دد" الذي ولي أخوه مكانه. ومن نصوص الملك رمسيس الثالث، نعرف أن هذا الملك أمر أن يحضر إليه "الأسرى العشرة". ويرجح أن هؤلاء العشرة كانوا يشكلون مجلسا استشاريا يتعاون مع رئيس القبيلة في إدارة شؤونها. وقد تكررت في نصوص هذا الملك أيضا عبارة " رؤساء

المشوش" وأشير في الأسرة الثانية والعشرين الليبية إلى "زعماء أرض مشوش" الرئيس الأعظم للمشوش و"رئيس الرؤساء". ولما كنا نرى في الصور التي حفظتها جدران المعابد في مصر بعض المشوش يتحلون بريشة واحدة وآخرين يتحلون بريشتين، فإن ذلك، فيما يرجح ، يعتبر علامة على تباين المركز الاجتماعي"[33] هذا يعني أن الأمازيغ كانوا يعيشون في ظل حكم فدرالي آنذاك، أو لنقل كانوا يعيشون في ظل حكم قريب من الصيغة الفدرالية المعروفة حديثا.

إذا حاولنا تمثل السياق السياسي القديم الذي يعود، على الأقل، إلى هذه الفترة فسنجد بأن الحديث عن رئيس الرؤساء والمجلس الاستشاري وقابلية الحاكم للتنحي عن الحكم هو بمثابة الحديث عن المدينة الفاضلة، مما يدل على أن الشعب الأمازيغي كان له حظ ما في القرار السياسي للبلد الذي يعيش فيه. هذا في حين نجد أن السياسة الفرعونية، كما يعلم الجميع، كانت تقوم على تأليه الحاكم ولا مجال للمشاركة الشعبية في الحكم على الإطلاق لا من قريب ولا من بعيد. فلا بد أن يكون المصري القديم قد أحس بهذا الفرق في ضوء احتكاكه بالجيران الغربيين. لهذا فأنا أحاول أن أتأمل جيدا حديث هيرودوت عن المصريين الذين كانوا يتاخمون بلاد الأمازيغ وأنهم، كما أسلفت، كانوا يفضلون الانتماء إلى الأمازيغ عن انتمائهم إلى مصر الفراعنة.

ومهما تكون وسيلة السيطرة الأمازيغية على مصر فلقد سجل الأمازيغ أدوارا مشرفة فيها، وكانوا معروفين بالبناء والعمران هناك بالإضافة إلى دفاعهم المستميت عن مصر والمحافظة على تقاليد الفراعنة الذين سبقوهم. لقد ذكر الدكتور أحمد بدوي هذه المسألة في شرحه لما ورد في كتاب هيرودوت حين

تحدث هذا الأخير عن الملك الذي سماه "آسوخيس". يقول هيرودوت: "ويقول الكهنة أن أسوخيس حكم بعد منقرع" [34].

من هنا يبدأ الدكتور أحمد بدوي شرحه لما ورد في كلام هيرودوت عن آسوخيس فيقول: " إن الذي حكم بعد "منكاورع" مباشرة قد كان "شبسكاف" وله قبر قائم عرف في الكتب العلمية باسم "مصطبة فرعون"، فأما ASYCHIS هذا فيما نذكر أنه ورد ضمن أسماء الملوك عند مؤرخنا الوطني منتون. ولا نذكر كذلك أنه ورد ضمن أسماء الملوك التي دونها الفراعنة في الأثبات التي عرفت في بعض معابدهم أو في القراطيس التي خصصت لذلك. ولربما يبدو طبيعيا أن يظن بعض المؤرخين أن المقصود بهذا الاسم هو "Bochoris وإن كنا لا نعرف له مثل هذا الاسم [35] كذلك ظن بعضهم أن ذلك الملك هو من أسماه "يوسف اليهودي" (آسوخايوس) ونسب إليه فتح "أورشليم [36] وبذلك يكون الملك الذي عناه هرودوت هو "شيشنق الأول" وإن كان قد خلط بينه وبين "بوخريس"[37] ويعلل الدكتور أحمد بدوي هذا التفسير بما عُرف عن الفرعون الأمازيغي شيشنق الأول من البناء فيقول:" وربما يؤيد هذا الزعم ما نسب إليه هرودوت من العمائر الضخمة في معبد "بتاح" وقد كان "شيشنق الأول" من كبار البنائين فعلا" [38].

إذا قلنا بأن هيرودوت كان يعني "شيشنق الأول" بحديثه عن الملك "آسوخيس"، وفقا لما جاء في شرح الدكتور أحمد بدوي، فيمكننا أن نتابع حديث هيرودوت عن هذا الملك إذ يقول: "وهو الذي شيد مدخل معبد "هيفايستوس" الذي يتجه نحو الشرق. وهو أكثر المداخل جمالا وضخامة. فمع أن كل المداخل تحوي أشكالا محفورة وآلافا من المناظر الأخرى للعمارة، فإن هذا المدخل يفوقها جميعا

إلى حد بعيد." [39] وفيما يتعلق بطبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين هذا الملك وشعبه في مصر يضيف قائلا: "ويقول الكهنة : إن النقد في عصر هذا الملك كاد يكون معدوما." [40] هذا يشير إلى نوع من التقارب والتراضي بين الحاكم والمحكوم إن جاز التعبير. وفيما يتعلق بالأهرامات أظن أنه من الصعب أن نقول، في الوقت الراهن، بأن الأمازيغ قد بنوا أهرامات أو لم يبنوها في مصر، على أننا، إذا ما سلمنا بصحة الشرح الذي ذهب إليه الدكتور أحمد بدوي، في القول بأن حديث هيرودوت عن الملك آسوخيس، هو حديث عن الملك "شيشنق الأول" بالتحديد، نجد أنه ربما كان هناك هرم على الأقل يعود لفترة الحكم الأمازيغي. يقول هيرودوت: "وقد أراد ذلك الملك أن يبز الملوك الذين حكموا مصر قبله، فخلف أثرا عبارة عن هرم مبني من اللبِن، وعليه نقش- محفور على حجر- يقول (لا تحتقرني بالقياس إلى الأهرام الحجرية فأنا أفوقها بقدر ما يفوق زيوس الآلهة الآخرين. فقد أُلقي مسبار في البحيرة فلصق به بعض الطين وأُخذ هذا الطين وصنعت منه لبنات وبهذه الوسيلة كان بنائي" [41]. حتى وإن كنت أحس بشيء من المبالغات، في هذا الكلام، نظرا للمشقة المضاعفة التي يبدو أن هذا الملك قد اختارها سبيلا لتشييد هرمه المزعوم، إلا أن هذا يعني- حسب ماجاء به اليوناني هيرودوت- بأن هناك هرما، على الأقل، يعود بناؤه إلى فترة الأسرة الثانية والعشرين وهي الأسرة الأمازيغية طبعا، ولكن الدكتور أحمد بدوي ينفى أن يكون الأمازيغ قد بنوا أهراما في مصر إذ يقول: "وليس يفوتنا آخر الأمر أن نذكر أن شيشنق وآله جميعا لم يبنوا أهراما، ومهما يكن من شيء فليس لدينا آخر الأمر ما يمكن أن نسند به كل هذا الزعم" [42] على أنه لا بد من القول بأن نفي الدكتور أحمد بدوي أن يكون الأمازيغ قد بنوا أهراما في مصر يستدعي

بالضرورة الشك فيما ذهب إليه من الاستنتاج بأن هيرودوت كان يقصد "شيشنق الأول" بحديثه عن الملك "آسوخيس" لأن هيرودوت يقول بأن هذا الملك قد شيد هرما، ولكن أعتقد بأن من يقرأ هيرودوت سيكتشف بعض الالتباسات الطفيفة في كتاباته على كل حال، وربما يكون أمر تشييد الهرم قد اختلط عليه. أما مسألة اشتهار الأمازيغ بالبناء في مصر فهي ليست خاضعة لهذا أو ذاك الالتباس، لأن أحمد بدوي نفسه جعلها إحدى المسلمات التي استند إليها في الوصول إلى القول بأن هيرودوت كان يقصد" شيشنق الأول" بحديثه عن الملك الذي سماه "آسوخيس".

الحق أننا لا نستطيع، كما قلت سالفا، أن نجزم، في الوقت الراهن على الأقل، بأن الأمازيغ قد بنوا أهراما كما لا نستطيع أن نجزم بأنهم لم يبنوها. فما زالت المعطيات الأثرية، وغير ذلك، في طريقها إلى الوجود، وقد تثبت ما ذهب إليه الدكتور أحمد بدوي كما قد تثبت العكس. وطبعا كان هناك دور للأمازيغ في تحرير مصر من الغزاة وعلى رأسهم الفرس. يقول الدكتور مصطفى كمال عبد العليم: "وقد شمل الحكم الفارسي المصريين والليبيين فلا ندهش إذا قرأنا عند هرودوت انه في عام 460 ق.م. على عهد الملك أرتاخشاشا (أرتاكسر كسين الأول) (464-324 ق.م. هبت في مصر ثورة تزعمها أمير ليبي محلي يدعى ارت حرارو (ايناروس) بن بسماتيك واسمه يوحي بأنه كان من فرع الأسرة السادسة والعشرين القديمة وكان أميرا على الليبيين في المنطقة الممتدة من ماريا (على بحيرة مريوط) حتى فاروس. وقد حالفه امرتي (اميرتايوس) وهو أيضا من سايس."[43] هكذا كانت مصر بمثابة الأرض الأم للأمازيغ بحيث أصبح الذود عنها هو الذود عن وجودهم "وقد نجح ايناروس في طرد جباة الضرائب وجند فرقا من الجنود

المرتزقة. و لم تلبث الثورة أن عمت مصر بأكملها. ثم طلب ايناروس المساعدة من أثينا التي بادرت إلى تأييده وأرسلت أسطولا من ثلاثمائة سفينة، وكانت الحرب سجالا بين الفرس وبين الثوار في الدلتا وانتصر ايناروس في القتال العنيف الذي دار عند بابريميس" [44] واستماتوا في القتال ضد الفرس إلى أن خانهم الحظ وحالف الفرس " وقد شهد هيرودوت بنفسه ميدان المعركة واستطاع أن يميز قتلى الليبيين بصلابة جماجمهم" [45] كما مر بنا، هيرودوت يعتبر الأمازيغ أقوياء جدا أكثر من سواهم ولا نتعجب أن يأتي استدلاله عليهم بصلابة الجماجم." ولما دارت الدائرة على إيناروس أُسر وأُحضر إلى سوسا عاصمة الفرس حيث حُكم عليه بالموت وعلى ختم أسطواني للملك الفارسي ارتاخشاشا صور الزعيم الليبي وهو يُذبح. وكان لا يزال يرتدي تاج مصر المزدوج " [46] ثم إن مصر، بفضل كونها تحت الحكم الأمازيغي، استطاعت أن تلعب دورا إيجابيا في نجدة الأمازيغ في أرضهم الأصلية وراء الحدود الغربية ، فعندما نشبت الحرب بين الإغريق والأمازيغ، على سبيل المثال، استنجدوا بالجيش الفرعوني الأمازيغي في مصر "ويقول هرودوت أن الليبيين ومعهم ملكهم أديكران Adicran ذهبوا إلى مصر والتمسوا مساعدة ملكها أبريس. وقد جند أبريس جيشا كبيرا من المصريين لنجدة الليبيين. والتقى هذا الجيش بأهل قوريني عند ايراسا جبث دارت الدائرة على المصريين لأن هؤلاء كما قال هرودوت لم تكن لهم نفس خبرة الإغريق [47]. هنا تجدر الإشارة إلى أن السيطرة الأمازيغية على الجيش المصري لم تنته عند نهاية الأسرة الثالثة والعشرين الأمازيغية، بل استمرت بعد ذلك طويلا، حتى أن الأسرة السادسة والعشرين، كما قلت في بداية هذا المقال، على الأرجح أنها كانت أمازيغية . وهذا قد رأيناه سالفا من خلال

حديث الدكتور مصطفى كمال عبد العليم عن ثورة "ايناروس" بن "بسماتيك"، وإن صح هذا فمعناه أن الأمازيغ هم الذين خلصوا مصر من النوبيين الذين سيطروا عليها بعد الأسرة الأمازيغية الثالثة والعشرين. يقول مصطفى كمال عبد العليم في إشارته إلى كون الأسرة السادسة والعشرين أمازيغية وعلاقة ذلك بنجدة الجيش الفرعوني للجيش الأمازيغي في حربه ضد الإغريق: "والتجاء الليبيين إلى المصريين كان أمرا طبيعيا، خاصة وأن الأسرة السادسة والعشرين كانت من سايس، ومن المحتمل جدا أن يكون ملوكها من أصل ليبي، وكان جيشهم يضم عناصر ليبية [48] .

لقد كان الملك "أبريس" حكيما إذ لم يرسل فرقة الإغريق من جنوده المرتزقة لنجدة الأمازيغ، ويقول مصطفى كمال :" ولم يكن في وسع أبريس أن يزود الليبيين بالجند المرتزقة من الإغريق الذين كانوا عماد جيشه، وذلك خشية انضمامهم إلى بني جلدتهم من اغريق قوريني" [49] وإبان الحكم الأمازيغي لمصر توسعت الدولة لتشمل فلسطين وغيرها فلقد تمكن الأمازيغ الفراعنة من فتح القدس، مثلا، وفي هذا يقول وول ديورانت 1885-1981 :"ولم يمض على موت سليمان إلا زمن قليل حتى استولى شيشنق ملك مصر على أورشليم، وحتى سلّمت له ما جمعه سليمان من ذهب بالضرائب التي فرضها على الشعب في أثناء حكمه الطويل"[50] أعتقد أن ديورانت كان يشير هنا إلى ما جاء في التوراة [51].

***

الخلاصة

أن حقيقة السيطرة الأمازيغية على العرش الفرعوني في مصر، والتي دامت لأكثر من قرنين ونصف، تتناقض مع ما يميل بعض الكلونياليين إليه من اختزال الأمة الأمازيغية واعتبارها كانت أقل شأنا من غيرها، لأن السيطرة على مصر في تلك الظروف، تبين لنا بأن الأمازيغ لم يكونوا أقل من الفراعنة تحضرا ولا أقل منهم قوة ولا شأنا، ولقد اكتفيت بأخذ أمثلة محددة على ذلك إلا أنها تطرح أمامنا تساؤلا لا شك أن الجواب عنه يقتضي كشف اللعبة، ألا وهي أن تاريخ الأمازيغ القدماء قد تعرض بالفعل للمؤامرات من قبل بعض المؤرخين وربما يكفي أن نعلم بأن الرومان، الذين تحدثوا عن الحضارة الأمازيغية ، كانوا أعداءها وهكذا بدأت القصة لتنتهي بالعرب الذين، وللأسف الشديد، لم يكن بعض المتطرفين منهم أقل استبعادا وعداء للثقافة الأمازيغية من غيرهم أبدا حتى وإن حصل بينهم وبين الأمازيغ وئام وتعايش كان ناجحا إلى حد ما ومن الصعب إنكاره.

ولكن ذلك قد كان على حساب التاريخ الأمازيغي الذي تم تقزيمة وإهماله واختزاله في تاريخ قريش أو في أغلب الأحوال، المزعوم أن بعضها أكاديمي، نراهم يختزلون الأمازيغ في هجرة حميرية قد يكون وقد لا يكون لها وجود أصلا. كل ذلك لا تخفى أحابيله عن اللبيب الفطن أو حتى الغبي، فإذا تم التنقيب عن التاريخ والثقافة الأمازيغيين القديمين فهذا يعني التقليل من شأن الثقافة الضادية (المحسوبة على العرب) والإسلامية في شمال أفريقيا حسب اعتقادهم. لهذا نرى

بعض العرب، حقيقة، أكثر من غيرهم في استعداء الأمازيغ وإن بدا العكس بالنسبة للأمازيغ البسطاء من الناحية الثقافية.

أنا آسف لقول هذا، رغم أنه حقيقة يعرفها المؤرخ العربي قبلي، لأنني لا أريد، من الناحية الأخرى، أن يتوجه مثل هذا الخطاب إلى بعض المتطرفين الأمازيغ الذين يعتقدون بأن الرد على العنصرية بالمثل يمكن أن يجدي نفعا. فعلى هؤلاء أن يعرفوا بألا مكان للعنصرية إلا في زمن الجاهلية، ومن كان جاهليا فهو مرفوض أيا كانت جنسيته.

ثم عندما نتحدث عن العرب فإنما نتحدث عن بعض العناصر الذين لهم علاقة بهذه العنصرية الرسمية والتي لم تتوقف تميل إلى السياسة الاستعمارية. لا يختلف اثنان حول أن العربي التقليدي لا يعرف، ولا يهمه أن يعرف، عن تاريخ شمال أفريقيا ما هو أقدم من أيام عقبة ابن نافع وعمرو بن العاص الخ. فهل نكون نحن عنصريين إذا قلنا هذه الحقيقة؟ بلى، فمن أجل تعميم الفائدة لا ضير أن نصارح بعضنا ونصارح غيرنا بما حدث وما هو قائم. فالعربي التقليدي آخر من يمكن أن يفكر في التاريخ الأصيل والقديم لهذا الشمال الإفريقي، أقول العربي التقليدي حتى لا أجرح بعض المتحضرين الذين تخلصوا من الجاهلية و لم تعد هناك مشكلة بينهم وبين أي عرق آخر.

إذن، فإن بعض العرب التقليديين، الذين يعرفون أنفسهم في الواقع، أكثر حتى من الرومان المستعمرين في تلذذهم بكل ما من شأنه أن يعيق تقدم الثقافة الأمازيغية إذ تراهم، على سبيل المثال، يتلذذون بكلمة "بربر" بدل كلمة "أمازيغ" مع ما يعرفون في ذلك من الشبهات. ففي الكتابة اللاتينية مثلا نجد، فرقا واضحا بين كلمة " Berbères" وكلمة " Barbares". والأمازيغ، على

كل حال، يسمون أنفسهم " إمازيغن Imazighen" أي "الأحرار"، إذن فمن يصر على أن يسميك بالاسم الذي يتخيله بدل الاسم الذي أطلقه عليك أبو ك وأمك، لا يقصد سوى الإهانة الممنهجة.

إن المؤرخ العربي النمطي (حتى لا نعمم ففي كل ميدان يوجد شرفاء) كان ومازال يصر على هذا الوصف من أجل ما فيه من الشبهات، ولا يتوانى عن قول "برابرة" أيضا في حديثه عن "الأمازيغ" وفي الحقيقة لا أتصور شتما يمكن أن يوجه إلى الإنسان أكثر من هذا مهما تكون الوسيلة والغاية. فكل ذلك يرسخ الاحتقان ويستعجل الانفصال ويشعل العداء. يؤجج الغرائز ويشعل التطرف المضاد. إذا كان هذا أو ذاك المؤرخ يعتقد بأن سعيه الحثيث، إلى تشويه الأمة الأمازيغية وتاريخها، من شأنه أن يجعل من نفسه ومن تاريخه بديلا عن التاريخ والثقافة الأمازيغيين، بالنسبة للأمازيغ، فهو مخطئ بامتياز.

ولا يفوتني هنا القول بأن فرنسا كانت حكيمة جدا عندما اختارت أن تؤسس أكاديمية خاصة للبحث في الثقافة والتاريخ الأمازيغيين، لأنها بذلك سوف تكسب ود الأمازيغ، أو تكسب احترامهم على الأقل. حتى وإن كانت نيتها خبيثة وراء ذلك. فهي، على كل حال، اختارت السبيل الأمثل للتقرب من الأمازيغي، في حين نجد الطرف الآخر، في الحقيقة، لم يضف شيئا إلى هذا الشمال الإفريقي، اللهم إلا سعيه الحثيث لشرقنته وتعريبه وتخريبه، أما بعض المهرجين الذين لم يعتادوا طبعا على غير النظام الأوتوقراطي وأحادية الرأي السديد، ولم يتربوا على غير الاستبداد والاستفراد والاستقراد، فهم يفسرون ذلك بأنه تمهيد لاستعمار آخر، وأن أولائك الأمازيغ الباحثين عن تاريخهم وعن

ثقافتهم، التي أضاعها بعض الضيوف المعززين المكرمين، هم مجرد منبطحين يعملون على استقدام الاستعمار ليس إلا.

ومما يثير الضحك، لدى بعض المفكرين المحسوبين على العرب، كالعادة هو أنهم ينسون أو يتناسون، بالمرة، أن الأمازيغ هم الذين خلصوا البلاد والعباد من الاستعمارات والاستخرابات في هذا الشمال الإفريقي طوال التاريخ. وفي ظل هذا المنطق أصبحنا لا ندري حقا ما الذي أصاب الباحثين عن أطلال "طروادة" أو جزيرة "أطلنتيس" المفقودة، فمن المؤكد أن هذا النوع من الأعراب (وليس العرب الشرفاء) لا يتوانى عن القول بأن غريزة الاستعمار هي التي تقف وراء ذلك لا أكثر ولا أقل. ولهذا لا ندري ما هو الشيء المتره عن الاستعمار يا ترى، وكأنهم لا يدركون بأن ما يرسخونه، هم أنفسهم، لم يفتأ يتخذ منحاه الاستعماري بأسوأ أشكاله ! وإلا فنحن نتساءل بجدية:

أفلم يكن من الحكمة ألا يجحدوا السكان الأصليين لهذا الشمال الإفريقي ويعملون ما بوسعهم من أجل النهوض بالثقافة الأمازيغية الأصيلة التي يفترض أن تكون ثقافتهم، ما داموا قد اختاروا القدوم إليها من أقصى الدنيا، كما فعل الأمازيغ القدماء الذين حكموا مصر واندمجوا في ثقافتها وبإخلاص كما رأينا سالفا؟ ترى ما الذي أبقوه للحديث عن الاستعمار وهم لا يسمون الأمازيغ إلا "برابرة" ؟؟ حتى أننا أصبحنا نتعرف على نسب وحسب الكاتب من خلال هذه التسمية وحدها. فعندما ترى كلمة "بربر" أمامك، سواء في كتاب أصفر أو أزرق، فاعلم أن الأعرابي هو الذي كتبها.

وبعد هذا وذاك يأتي أكثرهم تهريجا ليعلِّم الأمازيغ الفرق بين الاستعمار والاستقلال، أي أن الباحثين الأمازيغ وغيرهم في المعاهد والأكاديميات الأجنبية

المخصصة للثقافة الأمازيغية، المطرودة من عقر دارها، هو استعمار محض، أما انتهاج الشتم والسب اليومي في عقر الدار الأمازيغية فهو استقلال محض.

***

هوامش الفصل الأول:

[1] مصطفى كمال عبد العليم، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، ص 57، المطبعة الأهلية بنغازي 1966.

[2] سيد كريم، لغز الحضارة الفرعونية، ص 29 ، 30، طبعة 1996.

[3] المرجع السابق، ص 24

[4] أحمد عبد الحليم دراز، مصر وليبيا فيما بين القرن السابع والقرن الرابع ق.م، ص 20، نسخة إليكترونية عن موقع تاوالت الثقافي، www.tawalt.com

[5] المرجع السابق، ص 56

[6] مصطفى كمال عبد العليم، المرجع السابق، ص 23

[7] المرجع السابق، ص 32

[8] المرجع السابق، ص 33

[9] هرودوت يتحدث عن مصر، ص 108، ترجمة محمد صقر خفاجة، 1966

[10] سيد كريم، المرجع السابق، ص 29

[11] أحمد عبد الحليم دراز ، المرجع السابق، ص 58

[12] مصطفى كمال عبد العليم، المرجع السابق ، ص 32، 33

[13] المرجع السابق، ص47

[14] المرجع السابق، ص 33

[15] المرجع السابق، ص 33

[16] المرجع السابق، ص21، ثم انظر: إبراهيم نصحي، تاريخ مصر في عصر البطالمة، ج 1، ص 78،79، الطبعة الثانية، القاهرة 1960

[17] المرجع السابق، ص 21 ، وانظر: E.S.G Robinson, Catalogue of the Greek Coins of Cyrenaica (M.B.C.), London, 1927, PP.Ixxxviii-Ixxxvii, A.H.M. Jones Op.cit.P.358

[18] هيرودوت يتحدث عن مصر، ص 182

[19] المرجع السابق، ص 366

[20] أحمد عبد الحليم دراز، المرجع السابق، ص 61 ، ثم راجع: فوزي جاد الله ، مسائل في مصادر التاريخ الليبي قبل هيرودوت، ليبيا في التاريخ، ص 68: بنغازي، 1968

[21] مصطفى كمال عبد العليم، المرجع السابق، ص 31 ، ثم راجع: سليم حسن، مصر القديمة، ج 7 القاهرة. ص 323 وما يليها

[22] هيرودوت يتحدث عن مصر، 94

[23] المرجع السابق، ص 94 ، الهامش رقم 1

[24] تاريخ هيرودوت، الكتاب الثاني، ص 140، ترجمة عبد الإله الملاح

[25] المرجع السابق، ص 703 الهامش رقم 9

[26] المرجع السابق، ص150

[27] المرجع السابق، 151

[28] أحمد عبد الحليم دراز، المرجع السابق، ص 20

[29] المرجع السابق، ص 21

[30] المرجع السابق، ص 21

[31] مصطفى كمال عبد العليم، المرجع السابق، ص 70

[32] جاءت في هذه الطبعة "أعضاد" ، انظر المرجع السابق، ص39

[33] المرجع السابق، ص39

[34] هيرودوت يتحدث عن مصر، ص 264

[35] المرجع السابق، ص264، الهامش رقم 2.

[36] المرجع السابق، ص 264 .

[37] هرودوت يتحدث عن مصر، ص 264–265

[38] المرجع السابق، ص 265

[39] المرجع السابق، ص 265

[40] المرجع السابق، ص 265

[41] المرجع السابق، ص 265–266

[42] المرجع السابق، ص 265

[43] مصطفى كمال عبد العليم، المرجع السابق، ص 60–61

[44] المرجع السابق، ص 61

[45] المرجع السابق، ص 61

[46] المرجع السابق، ص 61 ثم راجع: C.H. Kracling, op. cit. P.17

[47] مصطفى كمال عبد العليم، المرجع السابق، ص 57 ، ثم انظر : S.Applebaum, The Jewish Revolution. P.180